75-960931

المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الاعلام ـ الجمهورية العراقية ـ المجلد الخامس ـ العدد الثالث ١٣٩٦ـ١٩٧٦

مصطفى عبد الرازق وكتاب التمهيد

بقلم
سعيد زايد

لم يسعدني الحظ بالجلوس امام استاذنا الاكبر المرحوم الشيخ مصطفى عبدالرازق ، بل جلست امام تلاميذه ، ولكني سمعت من ابناء جيلي ومن ابناء الجيل السابق ، عن نبله وكرمه ، ما يعجز الوصف عن تصويره ، فكم اخذ بيد طلاب العلم ومريديه ، وكم فتح ابواب الرزق امام أهله ، وكم عبّد طرق البحث امام الباحثين . ولقد شاءت الظروف ان اقابله مرة يوم ان عين شيخا للازهر الشريف ، فذهبت لاهنئه مع احد الاصدقاء ، بل لاهنيء المنصب به ، فرأيت صورة مجسدة للنبل والتواضع ورقة الحديث ، نبل الاصيل ، وتواضع العالم ، ورقة العطوف الحاني على ابنائه . ولولا مراعاة اللياقة وعدم الاستئثار بوقته الثمين لاطلنا الجلوس . ولكنا انصرفنا بعد فترة قليلة من الزمن ، ولم اكن ادري ان هذا اللقاء هو الاول والاخير في حياتي بالنسبة لهذا الاستاذ الجليل .

كان ـ رحمه الله ـ فريد عصره في الخلق القويم ومنارة شامخة من منارات العلم والعرفان . ولقد صح قول استاذه الامام محمد عبده فيه ، حين قال : « ما سررت بشيء سروري انك شعرت في حداثتك بما لم يشعر به الكبار عن قومك ، فلله انت ولله ابوك . ولو اذن لوالد ان يقابل وجه ولده بالمدح لسقت اليك من الثناء ما يملأ عليك الفضاء . ولكني اكتفي بالاخلاص في الدعاء ان يمتعني الله في نهايتك بما نفرسته في بدايتك » .

واحسب ، بل اوقن بان السادة القراء لا يتوقعون مني أن أؤرخ لاستاذنا الاكبر ، فان المكان المحدد لكلمتي التواضعة لا يسمح بذلك ، ولقد كفانا مؤونة ذلك شقيقة المرحوم الاستاذ علي عبدالرازق في كتابه الشامل « من آثار مصطفى عبدالرازق ». ولكني اختلس بضع سطور اذكر فيها بانه ولد في قرية « ابو جرج » في محافظة المنيا ، والتحق بكتاب القرية حيث تعلم القراءة والكتابة وحفظ شيئا من القرآن الكريم . ثم أرسل الى الجامع الازهر ليتلقى العلم منه ، وله من العمر احدى عشرة سنة . واتصل حينئذ بالاستاذ الامام وتتلمذ على يديه ، فكان يحضر دروسه التي كان يلقيها بعد صلاة المغرب في الرواق العباسي بالجامع الازهر ثلاث ليال من كل اسبوع في قراءة كتاب « دلائل الاعجاز » لعبدالقاهر الجرجاني ، وليلتين في تفسير القرآن الكريم . وعقب نيله شهادة العالمية سنة ١٩٠٨ دعي للتدريس في مدرسة القضاء الشرعي ثم استقال وسافر الى باريس سنة ١٩٠٩ ، وهناك التحق في بادىء الامر بجامعة السوربون حيث حضر دروس دوركهيم في علم الاجتماع ، ودروسا في الآداب وتاريخها ، ثم تحول منها الى مدينة ليون سنة ١٩١١ ، ليحاضر في الشريعة الاسلامية بكلية الحقوق وفي الادب العربي بكلية الآداب . ثم اضطرته ظروف قيام الحرب الى العودة لمصر سنة ١٩١٤ . وعين موظفا في مجلس الازهر الاعلى سنة ١٩١٥ ثم مفتشا بالمحاكم الشرعية سنة ١٩٢٠ . ثم نقل الى مجاله الذي هيأته المقادير لتوليه ، مجاله الحقيقي ، مجال المعلم ، مجال قائد الفكر وراعي الطلاب والباحثين ، كي يظهر فيه مثلا اعلى لما ينبغي ان يكون عليه استاذ الجامعة . وذلك حين عينته الجامعة المصرية استاذا مساعدا للفلسفة الاسلامية في كلية الآداب سنة ١٩٢٧ ثم استاذ كرسي سنة ١٩٣٥ . ولكن شاءت الظروف ان ينتزع من مجال الجامعة حين عين وزيرا لوزارة الاوقاف في ابريل سنة ١٩٣٨ ، اقول شاءت الظروف ان ينتزع من مجال الجامعة وان لم ينتزع قسط من رحاب العلم ، فقد بقي على ولائه للعلم واهله وان حرمت منه قاعات البحث في الجامعة . واعتقد ان هذا لم يكن يتفق مع مزاجه الرقيق ومع حبه للعلم والعلماء . ولقد تولى وزارة الاوقاف عدة مرات كان آخرها سنة ١٩٤٤ . وعين شيخا للازهر الشريف في ديسمبر سنة ١٩٤٥ ، وانتخب في نفس العام رئيسا فخريا للجمعية الفلسفية المصرية ، واختير سنة ١٩٤٦ اميرا للحج .

وكان اختياره لعضوية مجمع اللغة العربية في ٢٥ من نوفمبر ١٩٤٠ ضمن نخبة من العلماء ضمت : محمد حسين هيكل ، والدكتور علي ابراهيم ، والشيخ محمد مصطفى المراغي ، وعبدالعزيز فهمي ، واحمد لطفي السيد ، وعبدالقادر حمزة ، وعباس محمود العقاد ، وطه حسين ، واحمد امين .

وقد استقبلهم رئيس الخالدين وقتئذ بكلمة مختصرة قال في مطلعها : « استشعر اليوم عاطفتين قويتين ، فلا ادري ايتهما املك لنفسي وارضى لقلبي وهما السرور والفخر معا . وما لي لا اسر ابلغ السرور ، ولا افخر الى اقصى غايات الفخر ، وقد اذن القدر الكريم في ان تضم الى مجمعنا هذه النخبة المصطفاة من اعلام العلم والفضل والادب » ورد عليه الدكتور هيكل نيابة عن الاعضاء الجدد بكلمة قصيرة ايضا قال فيها : « انا ممن يؤمنون ، ايها الزملاء المحترمون ، بان اللغة قوام الحياة ، وبانها لذلك يجب ان تؤدى حاجات الحياة ادق الاداء، ويجب ان تدرس وتصقل لتفي بهذه الحاجات على اتم الوجوه » .

وقد شارك استاذنا الاكبر في اعمال المجمع مشاركة فعالة ، وكان عضوا في بعض لجانه وخاصة لجنة « معجم الفاظ القرآن الكريم » ، ولم تحرم جلسات المجمع من حضوره كلما سنحت له الفرصة ، فما كان احب اليه من مجالس العلم ، وما كان ابغض اليه من المناصب الادارية ، فكان يعتبر المجمع

تعويضا له عن الجامعة التي تركها ١٩٢٨ متنقلا بين وزارة الاوقاف ومشيخة الازهر ، وقد قبلهما حائرا ـ كما يقول احمد امين ـ بين طبيعته ومزاجه وبين خجله ولياقته .

وعندما انتقل الى الرفيق الاعلى ١٩٤٧ ، بكته مصر باسرها وبكاه علماء العرب ، واقيمت له حفلات التابين في كل مكان ، واقام له مجمع الخالدين حفلا ابنه فيه احمد امين فقال « لست انسى يوما منذ اربعين عاما ، سمعت باسمه وانا طالب بمدرسة القضاء وهو استاذ بها وحول اسمه هالة من حسب ونسب وغنى وجاه ، فارتسمت في نفسي صورة ابناء الذوات الذين يشمخون بانوفهم ويتكلمون من اطراف الستتهم وينظرون الى الناس في الارض من أعلى السماء فما رأيته حتى انمحت هذه الصورة الكاذبة ، وحلت محلها صورة تخالفها كل المخالفة . فقد اخذ من الارستقراطية اجمل ما فيها ، ومن الديمقراطية اجمل ما فيها . اناقة في الملبس من غير بهرجة ، ورشاقة في الحركة من غير تصنع ، وادب في الحديث من غير ترفع ، ودعة في النفس من غير تكلف » . وما كان ذو الاصل الرفيع ليبدو منه ما كان يقلق بال استاذنا احمد امين ، وما كان لرجل نشا في بيت عريق اشتهر برعايته للعلماء وحدبه على المتطلعين لنور المعرفة الا ان يكون قد صقلت نفسه وتهذبت اخلاقه وجبل على تواضع العلماء .

لقد كان استاذنا عبدالرازق منارة من منارات المعرفة جمع بين الفلسفة وعلم اللغة وبين الادب والشعر ، ولقد حق ما قاله فيه خلفه في مجمع الخالدين المرحوم خليل سكاكيني : « لو لم يسبقه الخليل بن احمد ، لكان هو اول من وضع علم العروض ، ولو لم يسبقه سيبويه لكان هو امام النحاة غير منازع ، ولو لم يسبقه عبدالرحمن بن عيسى الهمذاني صاحب كتاب الالفاظ الكتابية لكان هو اول من جمع شذور العربية الجزلة في اوراق يسيرة ، ولو لم يسبقه ابن خلدون لكان هو اول من وضع علم الاجتماع ، ولو لم يسبقه ارسطو هو اول من وضع علم المنطق . ولو فسح له في الاجل لكشف القناع عن حقائق كثيرة مجهولة » .

وقد الف أستاذنا الاكبر كتبا كثيرة : منها ما كتب ونشر، ومنها ما كتب ولم ينشر ، ومنها ما لا تستطيع اللغة ان تسميه كتابا ما دام الكتاب مشتقا من مادة كتب ، ولكنا ان توسعنا في تعريف الكتاب بانه الاثر الثمين النافع وليس من الضروري ان يكون مجموعة اوراق بين غلافين لم نستطع ان نحصي كتب مصطفى عبدالرازق ، نعم لم نستطع ان نحصي من تعهدهم وأنار طريقهم وفتح امامهم آفاق المعرفة وشجعهم على المضي في سبيل النور فكتبوا الكتب ونشروا البحوث .

يعد استاذنا الراحل رائد الفلسفة الاسلامية المعاصرة ، بعد ان حمل علم الحرية وبعد وفاة استاذه محمد عبده واستاذ استاذه جمال‌الدين الافغاني ، وكان له منهج مميز في تدريسها ، هو الاعتماد على النصوص وذكرها في اطار متناسق ، بحيث يكون كل نص مقدمة لما بعده ، فهو يورد النصوص في تسلسل منسق حتى تتضح الفكرة . ونحن اذا كنا نعرف جميعا ان خصائص التاليف الحديث هو استخلاص الفكرة من النص وشرحها باسلوب المؤلف مع الاشارة الى النص او ذكره للاستشهاد به ان دعا الامر ، فان هذا لم يكن ليغيب عن ذهن استاذنا الاكبر ، ولكنه كان في وقت بدات العقول تتفتح فيه على أفكار علماء الغرب ، فتجد فيها ضمن ما تجد افكارا تهاجم مفكري الاسلام وفلاسفتهم ، وتتهمهم بالتقليد ، بل بالترديد لافكار فلاسفة اليونان ، فاراد ان يثبت لكل ذي راي ان المسلمين فكروا وابتكروا فهم وان كانوا قد قراوا فلسفة الاغريق وهضموها فانهم لم يحاكوها ، فلم تكن آراؤهم نسخة طبق‌الاصل من آراء ارسطو ومن جاء قبله او جاء بعده من قدماء اليونان ، بل انه يوجد بين المسلمين من لم يطلع على آراء اهل يونان التي جاءت اول ما جاءت منذ ابتداء عصر الترجمة في الاسلام . ومع ذلك تجد عندهم افكارا وحججا قوامها المنطق السديد والاقناع العقلي ، حتى انه كان بين العرب قبل ظهور الاسلام من كان له نظر عقلي في الكون واصله وملاحظة النجوم والكواكب وتسجيل مساراتها وخلصوا من ذلك الى اكتشاف بعض‌مبادىء علم الفلك . وأياما كان الامر فان هناك من يرى ان المنهج الذي سار عليه الاستاذ في تاليفه لهذا الكتاب منهج حديث سليم ، يتذوقه اولئك الذين درسوا على مناهج الغربيين . وهو فوق هذا وذاك دليل على روح التضحية التي كان يتحلى بها ، كما ذكر الاستاذ احمد امين حين رثاه في مجمع الخالدين فقال : « وكم كنت اتمنى ان نظهر شخصيته في التاليف اكثر مما ظهرت وان يتحرر من المنقول اكثر مما تحرر، فقد كان رحمه الله يحاول ما امكن الا يظهر كما تظهر النصوص والنقول ، ولعل حرصه التام على الامانة في النقل واعطاء كل ذي حق حقه من الفضل حمله على ان يضحي بنفسه للاشادة بفضل غيره ، ولكل مؤلف مزاجه ولكل شيخ طريقته » .

بهذا المنهج ، منهج الاعتماد على النصوص ، سار استاذنا في اهم كتاب له وهو كتاب « تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية » ، وقد طبع هذا الكتاب ثلاث مرات ، صدرت الطبعة الاولى منه سنة ١٩٤٥ ، وصدرت الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٦ . والطبعة الاولى وان كانت قد صدرت سنة ١٩٤٥ الا ان المدة التي اقتضت كتابته تزيد على اثنى عشر عاما ، وذلك ان الاستاذ بدا فيه على شكل محاضرات لطلاب قسم الفلسفة في الجامعة المصرية منذ ان عين للتدريس فيه سنة ١٩٢٧ حتى انتزعته الحياة العامة ابتداء من الثلث الاول لسنة ١٩٣٨ حين عين وزيرا للاوقاف في المرة الاولى .

ويقع الكتاب في ٣٥٠ صفحة من القطع الكبير خلا المقدمة والفهرس ، وقد قسمه الى قسمين كبيرين وضميمة . تناول القسم الاول مقالات الغربيين والاسلاميين في الفلسفة الاسلامية ، فتحدث في الفصل الاول عن مقالات المؤلفين الغربيين ، وفي الثاني عن مقالات المؤلفين الاسلاميين ، وعرف في الثالث الفلسفة واقسامها عند الاسلاميين ، وخص الرابع بالحديث عن الصلة بين الدين والفلسفة عند الاسلاميين .

اما القسم الثاني من الكتاب ، فعنوانه « منهجنا في درس تاريخ الفلسفة الاسلامية » ، وهو ثلاثة فصول : تحدث في الفصل الاول عن بداية التفكير الاسلامي ، وفي الثاني عن‌النظريات المختلفة في الفقه الاسلامي وتاريخه ، وفي الثالث عن الراي واطواره .

اما الضميمة التي ختم بها الكتاب فهي في علم الكلام وتاريخه. قلنا ان استاذنا مصطفى‌عبدالرازق حمل علم الحرية بعد استاذه الامام محمدعبده، وقد كان‌هذا هو منهج مدرسته‌في‌البحث الذي يقوم على التثبت والتحقيق ، والاعتماد على الاصول الصحيحة للثقافة الاسلامية ، والبحث عن الظان التاريخية المعتمدة ، سائرا بذلك نحو الاصلاح في العلم والدين ، وبذلك يتحقق مذهبه في النهضة الثقافية .

ولقد كان متسلحا بهذه الحرية فاطلع على آثار الغربيين والمستشرقين ، فترك زبدها ، واخذ منها ما ينفع الناس ويمكث في الارض ، والى جانب تسلحه بسلاح

الحرية كان متسلحا ايضا بعفة اللسان ، فجاءت مناقشته لآراء الغربيين غاية في ادب الحديث ، انظر اليه حين يخاطبهم قائلا : « اما بعد ، فان الناظر فيما بذل الغربيون من جهود في دراسة الفلسفة الاسلامية وتاريخها لا يسعه الا الاعجاب بصبرهم ونشاطهم ، وسعة اطلاعهم وحسن طريقتهم ، واذا كنا المعنا الى نزوات من الضعف الانساني تشوب احيانا جهودهم في خدمة العلم ، فانا نرجو ان يكون في تيقظ عواطف الخير في البشر وانسياقها الى دعوة السلم العام والنزاهة الخالصة والانصاف والتسامح ، مدعاة التعاون بين الناس جميعا على خدمة العلم باعتباره نورا لا ينبغي ان يخالط صفاءه كدر .

وليس يؤنسنا من ذلك ان تهب في بعض البلاد نزعات كانت ركدت ريحها . ليس من شانها ان تخلص نفوس الناس من عوامل العصبية والهوى ، مثل نظرية تفوق السلالة النوردية الشاملة لشعوب اوربا الشمالية التي تحيا في المانيا لهذا العهد ، ومثل فكرة تفوق البيض على السود المنتشرة في امريكا الشمالية ، وفكرة تفوق الجنس الابيض على الجنس الهندي التي دعت تسمية المتولدين بين انجليز وهنديين تسمية خاصة في بلاد الهند وفي بلاد افريقية الجنوبية ، بل نحن نرجو ان يغلب العلم والحق هذه النزوات التي لا يسندها علم ولا حق(1) » .

اطلع الاستاذ عبدالرازق على ماكتبه المستشرقون،ثم ناقشه، فقد كان على علم تام بما اعتمدوا عليه من نصوص اسلامية ، فوجد انهم لم يتوسعوا في مصادر البحث ولم يلمسوا بالموضوعات الماما كاملا ، فعاد الى الاصول ، عاد الى الكتب والمخطوطات الاسلامية ودرسها بنفسه حسبما واتاه الله من ذوق سليم واستعداد مرهف وروح متاصلة بحب الاسلام ، بروح المدرسة التي آلت اليه زعامتها . درس استاذنا الاكبر نصوص القدامى دراسة موضوعية ، فخلص الى قضية خطيرة هي ان الفلسفة الاسلامية الصحيحة ينبغي التماسها في الفقه الاسلامي . فهو بعد ان ذكر رايا يقول : « اصبح في حكم المسلم ان للفلسفة الاسلامية كيانا خاصا يميزها عن مذهب ارسطو ومذاهب مفسريه فان فيها عناصر مستمدة من مذاهب يونانية غير مذهب ارسطو ، وفيها عناصر ليست يونانية من الآراء الهندية والفارسية ..الخ. ثم ان فيها ثمرات من عبقرية اهلها ظهرت في تاليف نسق فلسفي قائم على اساس من مذهب ارسطو مع تلافي ما في هذا المذهب من النقص باختيار آراء من مذاهب اخرى وبالتخريج والابتكار، وظهرت ايضا في ابحاثهم في الصلة بين الدين والفلسفة(2) نقول : بعد ان ذكر هذا ، رأي ان الفقه الاسلامي يمكن التماس الفلسفة الاسلامية من بين ثناياه ومن فضاياه المبنية على القياس العقلي ، فالاجتهاد بالراي في الاحكام الشرعية - وانا هنا استعير كثيرا من كلمات الاستاذ الجليل هو اول ما نبت من النظر العقلي عند المسلمين . وقد نما وترعرع في رعاية القرآن الكريم وبسبب من الدين . ونشات منه المذاهب الفقهية واينع في جنباته علم فلسفي هو علم « اصول الفقه » ، ونبت في تربته التصوف ايضا ، وذلك من قبل ان تفعل الفلسفة اليونانية فعلها في توجيه النظر عند المسلمين الى البحث فيما وراء الطبيعة والالهيات على انحاء خاصة . ويجب على الباحثين في تاريخ الفلسفة الاسلامية ان يدرسوا الاجتهاد بالراي منذ نشاته الساذجة الى ان صار نسقا من اساليب البحث العلمي ، له اصوله وقواعده . يجب البدء بهذا البحث لانه بداية التفكير الفلسفي عند المسلمين ، اذ ان الترتيب الطبيعي يقضي بتقديم السابق على اللاحق ، ولان هذه الناحية اقل نواحي التفكير الاسلامي تاثرا بالعناصر الاجنبية ، فهي تمثل لنا هذا التفكير مخلصا بسيطا يكاد يكون مسيرا في طريق النحو بقوته الذاتية وحدها ، فيسهل بعد ذلك ان نتابع اطواره في ثنايا التاريخ ، وان نتقصى فعله وانفعاله فيما اتصل به من افكار الامم .

ويؤيد هذا الراي استاذنا الدكتور ابراهيم مدكور في كتابه « في الفلسفة الاسلامية - منهج وتطبيقه » بقوله : « ان في مبادىء التشريع واصول الفقه تحاليل منطقية وقواعد منهجية تحمل شارة فلسفية واضحة ، بل ربما وجدنا في اثنائها ما يقرب كل القرب من مناهج البحث الحديثة » .

وقد استشهد استاذنا الاكبر على رايه هذا باقاويل كثير من المؤرخين الاسلاميين ، وذكر ان الامام الشافعي رضي الله عنه هو « اول من وضع مصنفا في العلوم الدينية على منهج علمي » هو كتابه « الرسالة » ، ثم حلل الرسالة تحليلا وافيا مبينا مظاهر التفكير الفلسفي فيها ، ذلك انها تسلك في مباحثها وترتيب ابوابها نسقا مقررا في ذهن مؤلفها ، وهذا النسق بداية « قوية » للتاليف العلمي المنظم في فن بجمع الشافعي عناصره الاولى لاول مرة ، وان كان - على حد تعبير استاذنا عبدالرازق - يختل اطراده احيانا ، ويخفى وجه التتابع فيه ، ويعرض لـ ٥الاستطراد ويلحقه التكرار والغموض . وان كانت هذه الرسالة لم تغفل جانب الفقه ، اي استنباط الاحكام الشرعية الفرعية من ادلتها التفصيلية ، فهي الى جانب هذا يلمح فيها نشاة للتفكير الفلسفي في الاسلام من ناحية العناية بضبط الفروع والجزئيات بقواعد كلية ، ويلمح فيها ايضا الاتجاه المنطقي الى وضع الحدود والتعاريف اولا ، ثم الاخذ في التقسيم مع التمثيل والاستشهاد لكل قسم . واسلوب الرسالة حوار جدلي مشبع بصور المنطق ومعانيه ، « حتى لتكاد تحسبه لما فيه من دقة البحث ولطف الفهم وحسن التصرف في الاستدلال ، والنقض ومراعاة النظام المنطقي ، حوارا فلسفيا على رغم اعتماده على النقل اولا وبالذات واتصاله بامور شرعية خالصة »(3) .وكذلك نجد في الرسالة ايماء « الى مباحث من علم الاصول تكاد تهجم على الالهيات او علم الكلام ، كالبحث في العلم ، وان هناك حقا في الظاهر والباطن وحقا في الظاهر دون الباطن .... وقد استدل الشافعي على حجية السنة وما دونها من الاصول فلفت الاذهان الى حجية القرآن نفسه ، وهي مسالة وثيقة الاتصال بابحاث المتكلمين(4) .

هذه بعض نظرات في كتاب استاذنا مصطفى عبدالرازق « تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية » ظهر منها مقدار اهمية الكتاب ومقدار خطره ، فان اقل ما يقال فيه هو انه وجه افكار الباحثين الى الفكر الاسلامي الاصيل ، واثبت لهم ان اسلافهم في صدر الاسلام بحثوا وفكروا وتفلسفوا من قبل ان تصل اليهم فلسفة اليونان ، وانهم استخدموا مناهج دقيقة في ابحاثهم تدل على صفاء الذهن ومنطقية العقل . ودعا الباحثين ايضا الى النظر في تراث السلف ، وانهم لواجدون فيه مادة خصبة لكتاباتهم وآفاقا رحبة تفلفلت في كثير من نواحي الفكر الانساني .

---

(1) مصطفى عبدالرازق : تمهيد لتاريخ الفلسفه الاسلامية ، ص ٢٧-٢٨ ، القاهرة ١٩٦٦ .
(2) المرجع السابق ، ص ٢٥ .
(3) المرجع السابق ، ص ٢٤٥ .
(4) المرجع السابق ، ص٢٤٥ .